الفصل الأول
فى أزمة التربية
«التربية وبناء الأجيال فى ضوء الإسلام» (*)

● شغلنى كثيرا واقع التربية والتعليم فى البلاد العربية والإسلامية ، ولأننى مسلم عربى لا أفتأ أهتم بواقع الأمة العربية والإسلامية وأجتهد دائما للبحث فى الداء والدواء ... فى واقع الأمة العربية المؤسف! «والذى استحالت فيه الأمة الواحدة ذات القبلة الواحدة والتشريع الواحد أمما شتى» – والنظر فى سبيل نهضتها والعودة بها إلى مكانها الطبيعى فى السيادة والقيادة، حيث إن الوضع الطبيعى لأمة العروبة والإسلام قد لخصه الشاعر، فى قوله:

ونحن أناس لا توسط بيننا لنا الصدر دون العالمين أو القبر (١)

– من أجل هذا نشط كثير من المفكرين والمصلحين العرب والمسلمين فى تشخيص العلة والداء توصلا لوصف الدواء، وخروجا بالأمة الإسلامية من وضعها الممزق حيث تكثر الرايات وتسود الأسوار الحديدية بين الشعوب الإسلامية ويعتبر المسلم أجنبيا فى البلد الإسلامى الآخر، وما آل واقع الأمة الإسلامية والعربية إلى ذلك إلا ببعث أعداء الإسلام من المستعمرين والمحتلين للروح الشعوبية بين أبناء الأمة الواحدة وربط هذه الكيانات الممزقة بركب الدول الكبرى والتى باتت كأنها وصيّ على أيتام لم يبلغوا سن الرشد بعد !!.

● والكتاب الذى بين أيدينا «التربية وبناء الأجيال فى ضوء الإسلام» يأخذ بيدنا على طريق التشخيص الصحيح للداء الذى يعانى منه المسلمون فى بلاد

(*) نشرت هذه الدراسة فى كتاب مستقل عن مكتبة دار الدعوة بالإسكندرية عام ١٩٨٢ م. كما نُشرت مقالة مختصرة فى صحيفة (أخبار الخليج) البحرينية فى [٣٠/١٠/١٩٩٢م].

(١) من قصيدة أبى فراس الحمدانى الرائية التى مطلعها:
أراك عصىَّ الدمع شيمتكَ الصبرُ أما للهوى نهىٌ عليك ولا أمرُ.

الإسلام المترامية الأطراف والممتدة على محور: [طنجة - جاكرتا] وما يزيد على مليار من الموحدين الذين يؤمنون بالله ورسوله ويعتقدون فى التوحيد بكلمة «لا إله إلا الله» ... ويصحبنا الكاتب ويضع أيدينا على موطن الداء ويدلنا على الخنجر الذى طعن به المسلمون بعد ما يعرض لآراء المصلحين فى مأساوية الواقع الإسلامى وسبيل النهوض به ويرى أن إرجاع الداء إلى إقصاء الشريعة الإسلامية عن مجال التطبيق واستبدالها على يديه وتحت رعايته بالقانون الوضعى أو إرجاع الداء إلى الحرب التى شنها الخصوم على لغة القرآن ومحاولة إبدالها بالعاميات للحيلولة دون ارتباط حياة المسلمين بالقرآن الذى هو دستور المسلمين وكتابهم المقدس، أو إرجاع الداء إلى الطعون التى وجهت إلى الاقتصاد الإسلامى والمفهوم السياسى الإسلامى للعلم بإبدال كل تلك المفاهيم بمفاهيم أخرى تضاد مفهوم الإسلام بل وتتناقض معه وإقامة حياة المسلمين على أساسها بالاقتصاد الربوى والشيوعية والليبرالية فى السياسة وقصر مفهوم العلم على الطبيعة والفلك والتكنولوجيا وقصر الفضل فى تلك العلوم على أوروبا وعلمائها لا يرى شيخنا أن الخنجر الذى طعن به المسلمون فى شئ مما سبق وإنما يرى أن الخنجر الذى طعن به المسلمون حقيقة الأمر فى (التربية والتعليم) التى سيطر عليها النفوذ الاستعمارى واحتواها وعندما انحسر ظله لم يسلمها إلى أهلها مرة أخرى بل مضت تدار بإشراف أوليائه وتحت لواء أتباعه [1].

- هذا ما يناقشه المؤلف فى هذا الكتاب الجامع لهذه القضية من كل أطرافها فى تشخيص دقيق للداء ووصف رائع للدواء فى تقديم الصورة المؤسفة للواقع وإبدالها بالصورة المشرفة لما ينبغى أن تكون عليه التربية وما يكون عليه التعليم، يشخص الواقع المرضى بتقديم البديل الذى يحتوى على عناصر النهضة

---

(١) التربية وبناء الأجيال ص : ٨.

لهذه الأمة ويضمن لها اتحادها وقوتها وازدهارها كى تحتل مكانها الذى أراده الله تعالى لأمة خير الأنبياء والمرسلين.

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠]

● والمؤلف غنى عن التعريف فهو مؤرخ كبير وأديب متفرد وباحث موسوعى غطت أبحاثه – تقريبًا – جميع مناحى المعرفة والثقافة والأدب والنقد فضلاً عن جهده المشكور والممتاز فى رصد الظواهر والاتجاهات الأدبية وكذلك السياسية والاجتماعية، فهو – بحق – جدير بلقب «شيخ الباحثين»، يذكرنى كلما نظرت فى إنتاجه وتتلمذت على يديه بالكتاب الموسوعيين الذين أنتجتهم الحضارة الإسلامية الأولى فى عصور ازدهارها ...

● والقضية التى يطرقها المؤلف فى هذا الكتاب القيم على درجة كبيرة من الخطورة كما ذكر فى مقدمة كتابه، وحسبنا أن نلقى نظرة على واقع التعليم فى المدارس والجامعات على طول جغرافية العالم الإسلامى وعرضها، ونلقى بنظرة أخرى على المتخرجين فى تلك المدارس وتلكم الجامعات !؟ يمكنك أن ترى حصاد ذلك فى وجازة ممتعة فيما كتبه الدكتور محمد إقبال شاعر الإسلام وفيلسوف الهند والباكستان حين يقول:

«إن الشباب المثقف فارغ الأكواب، ظمأ الشفتين، مصقول الوجه، مظلم الروح مستنير العقل، كليل البصر، ضعيف اليقين، كثير اليأس، لم يشاهد فى هذا العالم شيئا، هؤلاء الشبان، أشباه الرجال ولا رجال، ينكرون نفوسهم ويؤمنون بغيرهم، يبنى الأجانب من ترابهم الإسلامى كنائس وأديارا، شباب ناعم، رخو، رقيق، فى الشباب كالحرير يموت الأمل فى صدورهم ... إن المدرسة قد نزعت منهم العاطفة الدينية وأصبحوا خبر كان، أجهل الناس لنفوسهم وأبعدهم من شخصياتهم شغفتهم الحضارة الغربية فيمدون أكفهم إلى الأجانب ليتصدقوا عليهم بخبز الشعير ويبيعون أرواحهم فى ذلك ... مؤمنون ولكن لا

يعرفون سر الموت ولا يؤمنون بأنه لا غالب إلا الله ... مسلمون لكن عقولهم تطوف حول الأصنام، إن الإفرنج قد قتلوه من غير حرب وضرب، عقول وقحة وقلوب قاسية وعيون لا تعف عن المحارم وقلوب لا تذوب بالقوارع، كل ما عندهم من علم وفن ودين وسياسة وعقل وقلب يطوف حول الماديات، قلوبهم لا تتلقى الخواطر المتجددة وأفكارهم لا تساوى شيئا، حياتهم جامدة، واقفة متعطلة (١).

منهج المؤلف فى الكتاب:

وقد أنجز المؤلف خطة الكتاب فى قسمين رئيسيين:

الأول: يمثل الدراسة التاريخية على المستوى الأفقى، ويشتمل على المدخل والباب الأول الذى يعالج الغزو التربوى والثقافى بفصليه: الأول منهما يحدثنا عن مدارس الإرساليات وقصتها، والفصل الثانى من الباب الأول يحدثنا عن قصة التعليم الوطنى.

الثانى: يمثل الدراسة الموضوعية على المستوى الرأسى:

ويشتمل على البابين الثانى والثالث، يتناول المؤلف فى الباب الثانى واقع التربية الوافدة فى العالم الإسلامى فى فصلين: الفصل الأول منهما يتحدث عن أوجه الخلاف بين المناهج والفصل الثانى من الباب الثانى يتعرض لأوجه النقص فى الاقتباس.

وفى الباب الثالث: يتناول المؤلف التربية والتعليم والثقافة فى إطار الإسلام فى صورة إجرائية تتخذ شكل البديل العملى للمناهج التربوية والتعليمية والثقافية لمدارس الغزو الفكرى والإرساليات وكذلك المدارس الوطنية التى تنهج نهجا تعليميا يقوم على الترقيع والنقل والاقتباس والتكرار الممل. الأمر الذى أدى إلى هذه المحصلة المؤسفة من شباب العالم الإسلامى الذى تخرج من مدارس وجامعات بلاد الإسلام دون أن يعرف له فى الحياة هدفا أو مثلا أعلى أو غاية

---

(١) نحو تربية إسلامية حرة - أبو الحسن الندوى ص ٤٢، ٤٣.

يضحى من أجلها أو رسالة يبشر بها، وينفذ المؤلف لمعالجة تحتوى هذا الباب الذى يدور حول التربية والتعليم والثقافة فى إطار الإسلام فى ثلاثة فصول:

- الفصل الأول: التربية الإسلامية.
- الفصل الثانى: التعليم الإسلامى.
- الفصل الثالث: الثقافة الإسلامية.

وبعد فقد تعرضنا للإطار العام الذى عالج المؤلف من خلاله أزمة التربية الوافدة وسبيل النهوض بواقع التربية والتعليم فى بلاد الإسلام بتقديم البديل التربوى الإسلامى الذى يستمد قيمه من الوثائق التربوية الإسلامية والتى قدمها الإسلام للبشر مثلاً عليا جديرة بالتقدير والتطبيق حتى فى العالم الذى لا يؤمن بالإسلام كعقيدة ومنهج، وأبرز تلك الوثائق القرآن الكريم بما يحمله من هدى ربانى وقيم تربوية خالدة حيث أخبر عنه المولى عز وجل بقوله فى سورة الإسراء ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾، ويلى القرآن فى مصادر التربية الإسلامية ووثائقها السنة الشريفة والتى تشتمل على مجمل وصايا النبى وهديه وإرشاداته الحكيمة ويلى ذلك السيرة النبوية وسيرة تلامذة النبى ﷺ وصحابته الكرام والتابعين وأعلام المصلحين الذين يستمدون قيمهم ومثلهم العليا من مصادر الإسلام التربوية من العلماء العاملين والمجاهدين المسلمين عبر كل الأزمان والأمكنة، وحق لنا من ثَمَّ الانتقال إلى المعالجة التفصيلية لمحتوى الكتاب من خلال قسميه الرئيسين وأبوابه الثلاثة بعد المدخل الهام الذى افتتح به المؤلف معالجته لقضية البحث والكتاب.

● يرى المؤلف - كما سبق أن ذكرنا - أن الخنجر المغروس فى الجسد الإسلامى والذى ما زال ينزف دما هو فى حقيقة الأمر «التربية والتعليم التى سيطر عليها النفوذ الاستعمارى واحتواها وعندما انحسر ظله لم يسلمها إلى أهلها مرة أخرى بل مضت تدار بإشراف أوليائه وتحت لواء أتباعه»[1]، ويلمح

(١) المؤلف فى «التربية وبناء الأجيال» ص: ٨.

المؤلف فى معالجته للأزمة استمرارية الحروب الصليبية للعالم الإسلامى بيد أنه يرى اختلاف وسيلة هذه الحروب، فلم تعد حروبا مباشرة للمسلمين فى عقر دارهم بجنود وعتاد حربى بل أصبحت الوسيلة لتلك الحروب الصليبية الغزو الفكرى والتربية، يتم ذلك بواسطة الكلمة مكتوبة ومسموعة ومقروءة، يقول المؤلف: «ومن قلب الحروب وهزائم الغرب نبتت جذور تلك المؤامرة على أيدى المهزومين، لقد نتجت عن الهزيمة فكرة خطيرة، قالت هذه الفكرة: إذا لم يكن السيف قادرا على السيطرة على المسلمين فليكن ذلك عن طريق الكلمة ...» (١).

– ويمضى المؤلف يبلور هذا المعنى فيقول: «إذن فلا بد أن تبدأ المعركة من هذه النقطة الخطيرة، من نقطة تزييف العقيدة وامتصاص حيوية الدعوة «يقصد الدعوة الإسلامية بفاعليتها القادرة على التغيير فى كل زمان ومكان»، وتفريغها من مضامين القوة والإيمان والجهاد حتى يفقد المسلمون هذا السر الخطير وحتى يصبحوا قطيعا من السائمة التى يمكن أن تطوى وتقهر» (٢).

– كان ذلك الاتجاه بوصية لويس التاسع، ويمضى المؤلف قائلا: «هكذا كانت وصية لويس التاسع بعد هزيمته فى المنصورة تكشف عن هذا التحول فى الحروب الصليبية من السيف إلى الكلمة، وهو ما يمثل الموجة الاستعمارية العصرية لقد كانت نهاية الحروب الصليبية بداية حرب الفكر والكلمة ومنطلق المخطط الجديد للغزو الفكرى والثقافى ومحاولة دحر الإسلام (كفكر) بعد العجز عن القضاء عليه كقوة سياسية وأمة قائمة» (٣).

– ولهذا يرى المؤلف أن وصية لويس التاسع الذى أسر فى مصر فى حملته على شمال الدلتا وأودع دار ابن لقمان بالمنصورة إبّان الحروب الصليبية كانت تلك الوصية الوثيقة الأولى التى تبناها الأوربيون فى حربهم العالم الإسلامى

---

(١) المصدر السابق ص: ١٢.
(٢) المصدر السابق ص: ١٣.
(٣) نفس المصدر ص: ١٣.

بهدف القضاء على مكامن القوة فى العالم الإسلامى والتى تمتد رقعته بين المحيطين الأطلسى غربا والهادى شرقا على محور طنجه – جاكرتا.

وكانت أيضا العلامة المضيئة والمرشد على طرق التبشير والاستشراق والغزو الثقافى والتقريب وضرب الإسلام فى عقر داره بضرب المسلمين وتغريبهم وتشويههم لصورة الإسلام ومن ثم ينالون منه ومنه دعاته.

– وينتهى المؤلف إلى القول بأن الإشارة إلى لويس التاس باعتباره أول المبشرين وبأنه أول من دعا إلى استخدام الكلمة بدلا من السيف فى مواجهة الإسلام فى بلاد الإسلام، لم يكن ذلك من باب التجنى أو الاتهام وإنما شهد بذلك (شاهد من أهلها) وهو الأستاذ نبيه أمين فارس أحد الباحثين المشتغلين بالتبشير فى إحدى مؤسساته الكبرى يسجل ذلك تسجيلا صريحا لا يدع معه مجالا للشك الذى قد يراود بعض حَسَني الظن فى صحة هذا المخطط وصدق الإرادة فى العمل له»[1].

– ويصور الأستاذ نبيه فارس خطة لويس التاسع ومداها فى عبارات واضحة صريحة، يقول: «بينما كان الشرق الأدنى مطمعا لأفكار بناة الامبراطوريات كان أيضا مطمح أنظار جماعة أخرى من الناس تنشد أن تنجز عن طريق الكلمة ما عجز أجدادها الصليبيون عن تحقيقه عن طريق السيف. وبعبارة أخرى تنشد احتلال مهد المسيحية، وإخضاع العالم كله للمسيح. إن هذا الحلم المسيحى قديم قدم المسيحية ذاتها، وهو يستمد وحيه الدائم من الوصية التى سجلها أول المبشرين: (القديس لويس) ولعل سبب سيطرة هذه الوصية مرة أخرى على عقول المسيحيين يعود إلى اليقظة الدينية التى عمت انكلترا (إنجلترا) فى أواخر القرن الثامن عشر واليقظة الدينية المقابلة لها فى الولايات المتحدة التى تمثلت فيما سمى بروح انكلترا الجديدة»[2].

* * *

(١، ٢) التربية وبناء الأجيال ص: ١٦.